بسم الله الرحمن الرحيم

# الجزء الخامس عشر

## سورة الإسراء

## وسورة الكهف

من بدايتها حتى الآية ٧٤

obeikandl.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١) ﴾

﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ ﴾ تنزيه الله ـ تعالى ـ من كل ما لا يليق بجلاله وكماله، وهو الذى ﴿ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً ﴾ الإسراء هو السير ليلاً، وقال أكثر المفسرين: إن إضافة ليلاً تفيد أن ذلك الإسراء استغرق جزءًا من الليل، فيصير المعنى أن تلك الرحلة من مكة إلى المسجد الأقصى فى بيت المقدس والعودة، استغرقت جزءًا من الليل، بينما قال سيد قطب: [السياق ينص على الليل للتظليل والتصوير ـ على طريقة القرآن الكريم ـ فيلقى ظل الليل الساكن، ويخيم جوه الساجى على النفس وهى تتملى حركة الإسراء اللطيفة وتتابعها] ﴿ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ﴾ كان ذلك بعد أن فقد الرسول (ﷺ) كلاّ من خديجة (رضي الله عنها)، وعمه أبى طالب، حتى سماه المسلمون عام الحزن، فأراد سبحانه وتعالى أن يخص خاتم النبيين بآية من لدنه تُفَرِّج عنه، وفى نفس الوقت تبتلى الرافضين لرسالته والمؤمنين بها. والخلاف قديم ومتجدد على: هل كان الإسراء بالروح أم بالجسد؟ وأكثر المفسرين على أنه بهما، رغم أن السيدة عائشة أكدت أنه بالروح ﴿ الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ بارك الله حول المسجد الأقصى بإرسال أنبيائه يدعون للتوحيد.

(*) إلا الآيات ٢٦، ٣٢، ٣٣، ٥٧، ٧٣ إلى ٨٠ فمدنية.

والجدير بالذكر هنا أن القرآن بين أن سليمان (ﷺ) لما أراد أن يأتيه أحد رعاياه بعرش بلقيس، أجابه الذى لديه علم بالكتاب ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: ٤٠]، فما بالك برب العالمين عندما يريد أن يُرِى خاتم النبيين آياته، فكيف تقوم القدرة الإلهية بذلك؟

* * *

﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلاً (٢) ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا (٣)﴾

ولقد آتينا موسى التوراة هداية لبنى إسرائيل بألا يعبدوا إلا الله، ولايتخذوا وكيلاً إلا إياه، وهم ذرية من نجا مع نوح (ﷺ) ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ كان كثير الشكر لله، واستمر لمدة تسعمائة وخمسين عامًا على شكره ذلك الذى استحق ثناء الله عليه.

* * *

﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً (٥) ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا (٦)﴾

﴿وَقَضَيْنَا﴾ وحكمنا على بنى إسرائيل، وقال الشوكانى: [أعلمنا وأخبرنا، أو حكمنا وأتممنا، وأصل القضاء الإحكام للشىء والفراغ منه، وقيل أوحينا، ويدل عليه قوله: إلى بنى إسرائيل] ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ فيما قدره الله فى اللوح المحفوظ ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ بترك شريعة الله، وعصيانه، وقتل أنبيائه ﴿وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ ليظهر فيكم الفساد وينتشر، ولتصبحوا عالين فى الأرض ـ مثل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ﴾ [يونس: ٨٣] ـ ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا﴾ أى الإفساد والعلو الأول ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أصحاب قوة وبطش فى الحروب ﴿فَجَاسُوا خِلاَلَ الدِّيَارِ﴾ دخلوا دياركم وأشبعوكم قتلاً وتنكيلاً ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً﴾ وكان هذا الوعد متحققًا ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ ثم رددنا لكم الغلبة عليهم؛ حيث جعلنا لكم أموالاً وأبناءً كثيرة ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ وجعلناكم أكثر عددًا ينفرون للقتال.

* * *

﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا (٧) عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا (٨) ﴾

تعددت أقوال المفسرين والمؤرخين فى المرتين اللتين علا فيهما بنو إسرائيل، والوعد الأول الذى اقتحمت القوات المعادية منازلهم، والوعد الثانى، أو وعد الآخرة الذى أذلهم فيه أعداؤهم ودخلوا المسجد. فمنها أن الوعد الأول هو تغلث فلا شر أو جنود أشور، والثانى هو نبوخذ نصر أو بختنصر أو جنود بابل، ومنها أن الثانى هو تدمير الرومان المعبد سنة ٧٠م، ومنها قتلهم على يد الرومان بعد ذلك فى بداية الثلث الثانى من القرن الميلادى الثانى، وقيل غير ذلك. وكما تعددت الأقوال فى ذلك، تعددت الأقوال فى علو بنى إسرائيل، متى وكيف كان، وليس فى القرآن توضيح لذلك، ولا فى الأحاديث الصحيحة، والعبرة فى الآيات أن بنى إسرائيل عندما أفسدوا وطغوا وعلوا بمقاييس الأرض وليس بمقاييس السماء، أذاقهم الله لباس الذل والهوان، والعبرة أيضًا قول الآية الكريمة ﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ﴾ فمآل عصيان الله والطغيان والإفساد هو الذل والهوان، مرة واثنتين وثلاث. . . وكلما كرروا ذلك، بنو إسرائيل أو غيرهم، وليس بنو إسماعيل باستثناء من ذلك، كرر الله عليهم الذل والهوان، وربما لا يجاوز الصواب من قال بأن المرتين وقعتا قبل نزول القرآن، وأن ﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ﴾ باقية لبنى إسرائيل، ولغيرهم، إلى يوم القيامة، وقال سيد قطب: [لا ينص القرآن على جنسية هؤلاء الذين سلطهم على بنى إسرائيل؛ لأن النص عليها لايزيد فى العبرة شيئًا، والعبرة هى المطلوبة هنا، وبيان سنة الله فى الخلق هو المقصود. ويعقب السياق على النبوءة الصادقة والوعد المفعول، بأن هذا الدمار قد يكون طريقًا للرحمة ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ﴾ إن أفدتم منه عبرة، فأما إذا عاد بنو إسرائيل إلى الإفساد فى الأرض فالجزاء حاضر والسنة ماضية: ﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ﴾ . . ] ﴿ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴾ وجعل الله جهنم مجلسًا ومنامًا للكافرين، تحصرهم فتكون كالسجن لهم.

***

﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (٩) وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٠) ﴾

يهدى القرآن كل من اتبعه إلى الطريق الأصلح، ويبشر من آمن بالله وعمل صالحًا بالأجر الكبير، أما الذين يجحدون الآخرة، فينتظرهم فيها عذاب أليم.

***



obeikandl.com

﴿ وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً (١١) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً (١٢) ﴾

ربما يدعو الإنسان لأمر يجلب عليه شرّا له وهو لا يدرى، أو يكون تحقيقه العاجل قبل أوانه فيه شر ـ وهكذا الإنسان ﴿ خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ [الأنبياء: ٣٧] ـ وكما أكد وكرر القرآن، عسى أن يحب الإنسان شيئًا وهو شرّ له، وعسى أن يكره شيئًا وهو خير له. جعل الله الليل والنهار وتعاقبهما علامتين على قدرته، ومحا النور من الليل ليسكن الناس فيه، وجعل النهار منيرًا ليتمكنوا من السعى على معايشهم، وليعلموا من هذا الاختلاف حساب الأيام والأسابيع والأشهر والسنين، وفى تعاقب الليل والنهار إشارة لأولى الألباب، فمن يقع فى عسر يأمل اليسر، كما يجىء ضوء النهار بعد الليل، ومن يكرمه الله بيسر، فليحمد الله ويتقيه حتى لا يصيبه العسر جزاء سوء عمله، وما تركنا أمرًا من أمور الدين والدنيا إلا وفصلناه تفصيلاً.

* * *

﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤) مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا (١٥) ﴾

كان العرب يتفاءلون ويتشاءمون بالطير، وقد يرتبون أمورهم على ظهوره واختفائه وما إلى ذلك، ونهت الشريعة عن ذلك، وبينت أن مستقبلهم مرهون بأعمالهم، وأن الله يسجلها، فإذا جاء يوم الحساب، أخرج لكل إنسان سجل أعماله ونشره أمامه، وحين يوشك القضاء الفصل، إذا برب العالمين يأمر كل إنسان بأن يحسب بنفسه أعماله، بما يظهر أن ذلك فى خاتمة مجادلات الإنسان عن نفسه، التى أنكر كفره فيها تارة، وطلب العودة للدنيا ليعمل صالحًا تارة أخرى، وجادل بأن الله وأباءه هم السبب فى غوايته تارة ثالثة، وتقترح تلك الخاتمة أن الإنسان فى النهاية تخلى عن كل ظلمه، وأبصر حق الله حتى أصبح جديرًا بأن يحاسب نفسه. قال الزمخشرى: [كان الحسن إذا قرأها قال: يا ابن آدم، أنصفك والله من جعلك حسيب نفسك] ثم تبين الآية أحد أركان المنهاج الربانى ﴿ مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ فكل إنسان يتحمل تبعات هداه وتبعات ضلاله، فلا خطيئة أصلية ارتكبتها حواء، يحمل كل البشر وزرها، ولا يتحمل الأبناء وزر الآباء إلى الجيل الثالث أو

الرابع، ولكن ﴿لا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ كل فرد يُحاسب على عمله ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ فهذا هو المنهاج الربانى ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ لا يحاسب الله أحدًا حتى يبين له طريق الهدى وطريق الضلال.

***

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا (١٦) وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (١٧)﴾

إذا قدرنا إهلاك أمة باستئصالها ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ تعددت تفسيرات الآية، فكلمة ﴿أَمَرْنَا﴾ تعنى أيضًا كثّرنا، أى أن الله كثَّر أو أكثر ﴿مُتْرَفِيهَا﴾ الذين أترفتهم الحياة الدنيا عن الحق ﴿فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ فعصوا الله فيها. قال الطبرى: [قال ابن عباس: ﴿أَمَرْنَا﴾ بطاعة الله، فعصوا... فأولى التأويلات: أمرنا أهلها بالطاعة فعصوا وفسقوا فيها، فحق عليهم القول]، وقال الزمخشرى: [وإذا دنا وقت إهلاك قوم، أمرناهم بالفسق ففعلوا، والأمر مجاز؛ لأن حقيقة أمرهم بالفسق أن يقول لهم: افسقوا، وهذا لا يكون، فبقى أن يكون مجازًا، ووجه المجاز أن صب عليهم النعمة صبّا، فجعلوها ذريعة إلى المعاصى واتباع الشهوات. وقد فسر بعضهم ﴿أَمَرْنَا﴾ بكثَّرنا]، وقال الشوكانى: [اختلف المفسرون فى معنى أمرنا على قولين: الأول أن المراد به الأمر الذى هو نقيض النهى، وعلى هذا اختلفوا فى المأمور به، فالأكثر على أنه الطاعة والخير، القول الثانى أن معنى ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ أكثرنا فساقها ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ﴾ ثبت وتحقق عليهم العذاب بعد ظهور فسقهم ﴿فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾] ويكتمل فهمنا للآية بتذكر قول الآية ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (١١٧)﴾ [هود: ١١٧]، فإرادة الإهلاك هنا إنما هى نتيجة ظلم أهل القرية الذى جعلها مستحقة للإهلاك ـ وهى قرية ساد فيها أقوام من عينة ما قالت الآيات: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ (٨٨)﴾ [البقرة]، ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٤٦)﴾ [الأعراف]. ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ (٥)﴾ [فصلت]، وفى الحديث أن أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ سألت الرسول (ﷺ)

أنهلك وفينا الصالحون؟ فأجابها «نعم، إذا كثر الخبث» رواه البخارى ـ ولقد أهلك الله أمما ظالمة كثيرة من بعد قوم نوح بسبب المعاصى التى انغمسوا فيها، والله خبير بصير بما يعملون.

* * *

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا (١٩) كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (٢٠) انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً (٢١) لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولاً (٢٢) ﴾

من كانت الدنيا أكبر همهم وعلمهم، أعطينا منها القدر الذى نشاء لمن نريد، ثم عند حساب الآخرة لا يجد ما يثقل ميزانه؛ فيُلقى فى جهنم مذمومًا على عمله مطرودًا من رحمة الله، أما من ابتغى الدار الآخرة، فعمل الصالحات، وهو مؤمن ﴿ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ ومن شكره رب العالمين، فقد فاز. ويمد الله من عطائه الذى لا ينفد طالبى الدنيا وطالبى الآخرة، واعلموا أن تفضيل الله فى الآخرة للناس حسب أعمالهم أكبر مما ترونه من تفضيله لهم فى الدنيا. ثم بعد هذا البيان الإلهى لأحوال الناس فى الدنيا والآخرة، يجىء النهى عن الشرك ﴿ لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولاً ﴾ قال شوقى ضيف: [الخطاب فى هذه الآية للرسول ﷺ، ولكن المراد به أمته، وقيل إن الأصل فى الأوامر بالقرآن أنها موجهة إلى الرسول ﷺ وقد تعم أمته، أما النواهى ـ مثل هذه الآية ـ فإن الأصل فيها أنها موجهة إلى أمته، وقد نهيت الأمة عن الشرك حتى لا تجمع عليها الذم والخذلان الإلهى].

* * *

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا (٢٥) ﴾

أمركم ربكم ألا تعبدوا إلهًا غيره، وأن تحسنوا إلى والديكم، وإذا بلغا الكبر والهرم فى حياتك فعاملهما بأحسن ما تستطيع، وجاء التعبير الربانى بكلمة ﴿ عِندَكَ ﴾ مما يوحى بمعان طيبة عديدة؛ منها مسئوليتك عنهما، وفيها وجودهما فى حماك ورعايتك، وإن لزم وقدرت

فتكفل بإقامتهما، ولا تنهرهما على أى عمل أو قول، بل ولا حتى تتأفف من ذلك؛ وكن كريمًا وذليلاً فى تعاملك معهما قولاً وعملاً، رحمة بهما، كما كانا رحيمين بك، وادع الله أن يرحمهما، وتحول الخطاب من الجماعة إلى الفرد لتأكيد مسئوليتك الفردية عن والديك. الله يعلم ما فى نفوسكم من شعور ومن نوايا ﴿إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُوراً﴾ الأوبة هى الرجعة إلى الله، فإذا أذنب المؤمن أو أخطأ، فعليه أن يكون سريع الأوبة إلى الله بعلاج ذنبه أو خطئه، ثم بالاستغفار والندم، فالله يغفر للأوابين. وجاء فى الحديث«ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا: بلى يا رسول الله، قال: «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين» وكان جالسًا متكئًا فجلس، فقال: «ألا وقول الزور» فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت، رواه البخارى، وجاء أيضًا «إلزمها (أمك) فإن الجنة تحت أقدامها» رواه النسائى وأحمد، وجاء «كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون» رواه ابن ماجه والحاكم فى «المستدرك»، وجاء «التائب من الذنب كمن لا ذنب له» رواه الطبرانى.

***

﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا (٢٧) وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا (٢٨) وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا (٢٩) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا(٣٠)﴾

﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ العطاء هنا ليس تفضلاً منك، بل إن للقريب حقًا فى مالك؛ لأن المال هو مال الله، وأنت مُستخلف عليه، والله يحاسبك على حقوق الخلق لديك، سواء كانوا أقارب أو مساكين أو أبناء السبيل ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ لأن الله يكره المبذرين ويعتبرهم إخوة للشياطين ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ فإذا لم يكن معك ما تنفقه فى سبيل الله وأنت تنتظر وتتمنى أن يرزقك الله، فقل للسائلين قولاً هينًا ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ كناية عن فرط الشح ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ كناية عن الإسراف ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا﴾ فتستحق بذلك اللوم ﴿مَّحْسُورًا﴾ عاجزًا لقلة المال أو عدمه ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ﴾ يوسع الله الرزق لمن يشاء وكيفما شاء ﴿وَيَقْدِرُ﴾ ويقلل ويمسك عن آخرين؛ لأنه خبير بصير بحال عباده. وفى الحديث القدسى

عن رب العزة: «وإن من عبادى المؤمنين لمن لا يصلحه إلا الغَنَاءُ ولو أفقرته لأفسده. وإن من عبادى لمن لا يصلحه إلا الفقر ولو بسطت له لأفسده ذلك. وإن من عبادى لمن لا يصلحه إلا الصحة، ولو أسقمته لأفسده ذلك، وإن من عبادى لمن لا يصلحه إلا السَّقمُ ولو صححته لأفسده ذلك. إنى أدبر عبادى بعلمى بقلوبهم، إنى عليم خبير» رواه الطبرانى، والبيهقى.

❋ ❋ ❋

﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا (٣١) وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً (٣٢) ﴾

﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود: ٦]، وهناك العديد من الآيات التى تبين أن الله سخر للإنسان ما فى السماوات والأرض، وقد علمنا من سورة البقرة أن الله خلق الإنسان لخلافته على الأرض، فكيف ينحط فكر الإنسان ويقسو قلبه لدرجة أن يقتل أبناءه خوفًا من الفقر أو من العار؟ ﴿ وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً ﴾ الزنا فاحشة من الكبائر ﴿ وَسَاءَ سَبِيلاً ﴾ قَبُحَ طريقًا، والآية تنهى عن مجرد الاقتراب من مداخل ومقدمات الزنا من نظرة بشهوة، أو النطق بفحش الكلام، أو اللمس، أو الخطو، أو التمنى بالقلب. وفى الحديث: «العينان زناهما النظر، والأذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليد زناها البطش، والرجل زناها الخطى، والقلب يهوى ويتمنى، ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه» متفق عليه، وهذا لفظ مسلم.

❋ ❋ ❋

﴿ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا (٣٣) ﴾

نهى رب العالمين عن قتل النفس، أى نفس ﴿ إِلاَّ بِالْحَقِّ ﴾ كالقصاص ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا ﴾ بغير حق ﴿ فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ ﴾ الولى الذى له حق المطالبة بدمه والقصاص من القاتل ﴿ سُلْطَانًا ﴾ حجة وتسلطًا على القاتل فى الاقتصاص منه، أو أخذ الدية أو العفو عنه ﴿ فَلا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ ﴾ فلا يقتل غير القاتل، كعادة الجاهلية ﴿ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا ﴾ طبقًا للشرع، فعليه الالتزام به، القصاص أو الدية، أو العفو إن سخت نفسه.

❋ ❋ ❋



obeikandi.com

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا (٣٤) وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٣٥)﴾

ولا تتصرفوا فى مال اليتيم إلا بالطرق التى تنمى ثروته وتحفظها حتى يبلغ سن الرشد، ويتسلم أمواله، وحافظوا على كافة وعامة العهود؛ لأن الله سائلكم عنها يوم القيامة، وإذا بعتم أو اشتريتم، فأوفوا قيمة الشراء وقيمة البيع، وزنوا بالعدل، ذلك خير لكم، عاجلاً وآجلاً.

***

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (٣٦)﴾

﴿وَلَا تَقْفُ﴾ ولا تتبع، والمعنى لا تتبع قول القائلين عن الناس ما لم تره أو تسمعه أو تعرفه بنفسك، فإنك مسئول عن سمعك وبصرك وقلبك وجميع جوارحك يوم الحساب. قال الطبرى: [أولى الأقوال بالصواب: لا تقل (عن الناس) ما لا علم لك به، فترميهم بالباطل وتشهد عليهم بغير الحق، فذلك هو القفو].

***

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا (٣٧) كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا (٣٨) ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا (٣٩)﴾

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ ولا تسير معجبًا بنفسك مختالاً فخوراً بها، وتذكّر أن بدايتك نطفة، ونهايتك فى الدنيا جثة، ولا يعلم آخرتك إلا الله، ولن تخرق الأرض بمشيك، ولن تطول قامتك حتى تبلغ قمم الجبال، كل السيئات المنهى عنها فى الآيات السابقة مكروهة عند الله، والأوامر والنواهى السابقة هى وحى الله إليك لتبلغه للناس، ولا تشرك بالله فينتهى أمرك ملقيًا فى جهنم، مستحقّا للوم، مطروداً من رحمة الله.

***

﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا (٤٠)﴾

سؤال فيه تعجب من أمر الكفار ومعتقداتهم السقيمة.. هل تزعمون أن الله قد اختار لكم ما تحبون من إنجاب البنين، وقد خص نفسه بالملائكة الإناث؟! ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ إنكم لتفترون بهتانًا عظيمًا.

***

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُوراً (٤١) قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لاَّبْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً (٤٢) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً (٤٣) تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً (٤٤) ﴾

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا ﴾ عرضنا الحجة تلو الحجة بمختلف الأساليب فى هذا القرآن، بالأمثال والمواعظ والقصص، وبشرنا، وحذرنا وأنذرنا؛ ليتذكر المشركون والملحدون شهادتهم الأولى على أنفسهم بمعرفة الله ربهم، ويستعملوا فطراتهم وعقولهم ومداركهم، ولكنهم ازدادوا رفضًا وكراهية. قل لهم يا محمد لو كان مع الله آلهة أخرى لحاولوا النيل من الله والتدخل فى شئون الكون، ولو كانوا ذوى قدرة على ذلك لاختل نظام الكون المحكم ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً ﴾ تعالى الله وتنزه عما يقولون تنزيهًا عظيمًا ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ كل ما فى الكون يسبح بحمد الله، ولكن لا تفقهون تسبيحهم. يقول البعض إن تسبيح الكون هو فى الالتزام بسنن الله، أى بالقوانين التى يسير عليها، بدءًا من الذرات ومكوناتها، إلى الشمس والقمر والأفلاك، مرورًا بالإنسان والحيوان، بما يشمل أجهزتهم الداخلية، مثل التنفسى والعصبى والهضمى وما إلى ذلك، ونفوس الناس وأرواحهم، والله أعلم ﴿ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ﴾ برغم كل جحود الناس خالقهم ـ وهم كما صورت الآية ﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ [يس: ٧٧] ـ يصبر الله على تلك النطف المجادلة شديدة الخصومة، ويحلم، وبرغم ميثاقهم الأول بالشهادة لله بالربوبية، وبرغم نعمه عليهم، يسوق لهم الحجة بعد الحجة، والعبرة بعد العبرة، ويأخذهم بالسراء والضراء، وبالوعد والوعيد حتى يعودوا إلى الله مولاهم الحق، وحينئذ يغفر لهم كل ما صدر منهم.

* * *

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَّسْتُوراً (٤٥) وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً (٤٦) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً (٤٧) انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً (٤٨) ﴾

وإذا قرأت القرآن لتهديهم به، جعل ربك بينك وبين أولئك الجاحدين مانعًا ساترًا، أو مانعًا لا يرى، كأن يجعل أغطية على قلوبهم وفى آذانهم صممًا، وذلك مجازٌ عن إضلالهم عن الحق الذى استحقوه بتكبرهم وعنادهم، وبإفسادهم فطراتهم، وتعطيلهم مداركهم التى حباهم الله بها. وإذا ذكرت الله وحده ولم تذكر آلهتهم، هربوا نفوراً من استماع كلمة التوحيد ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ﴾ نحن أعلم بالموقف الرافض والأسلوب الجاحد الذى يستمعون به إليك ﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ﴾ يتناجون فيما بينهم وهم يستمعون إليك، ويقولون: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ مغلوبًا على عقله بالسحر ﴿انظُرْ﴾ يا محمد كيف ضربوا لك الأمثال، فتارة قالوا ساحر، وأخرى شاعر، وثالثة مجنون ﴿فَضَلُّوا﴾ ضلالاً بعيدًا لن يهتدوا بعده إلى الطريق المستقيم.

***

﴿وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩) قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَينْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا (٥١) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا (٥٢)﴾

يتساءل المتكبرون الجاحدون، الذين يتبعون أهواءهم فى الحياة الدنيا: كيف يمكن بعثنا بعد أن نموت ونصير عظامًا وبقايا أجساد؟ فيجيبهم خالقهم: بل حتى لو صرتم حجارة أو حديداً، أو أى خلق ترونه كبيراً لا يمكن تغييره أو إعادته بعد فنائه، فسيقولون تعنتًا وتحديًا: ومن يعيدنا؟ قل الله الذى خلقكم وخلق كل الخلق أول مرة ﴿فَسَينْغِضُونَ﴾ فسيهزون رؤوسهم فى استخفاف وسخرية: متى ذلك؟ أرنا ذلك أنت وربك! فقل لهم يا محمد قد يكون ذلك قريبًا، يوم يدعوكم فتقومون من الموت ﴿بِحَمْدِهِ﴾ تعددت أقوال المفسرين، فمنها أن كل البشر المبعوثين يحمدون ربهم فور بعثهم من الموت، وقبل بدء الحساب، وقال آخرون إن ذلك قول المؤمنين: الحمد لله الذى بعث الناس للحساب وإقامة موازين الحق. وعندما تبعثون، تظنون أنكم ما لبثتم فى حياتكم الدنيا، وفى قبوركم حتى بعثكم للحساب إلا قليلاً. وجاء فى الحديث «إذا مات أحدكم، فقد قامت قيامته» رواه الديلمى.

***

﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا الَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا (٥٣) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً (٥٤) وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى السَّمَـوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّـينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا (٥٥) ﴾

قل يا محمد لعبادى المؤمنين أن يقولوا أحسن الكلام الطيب لكلّ البشر حتى لا يوقع الشيطان بينهم، فهو عدو ظاهر للمؤمنين، وربكم أعلم بكل أحوالكم، ما أعلنتم وما أخفيتم، ويجازى كلاّ منكم بعمله، فيرحم هذا ويعذب هذا، ولم يرسلك الله وكيلاً على أحد فتجبره على الإيمان، ثم تعيد الآية توكيد علم الله بكل ما فى السموات والأرض، وقد فضل الله بعض النبيين على بعض، ولكن لا نخوض نحن فى ذلك، كما جاء فى خواتيم سورة البقرة ﴿ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ﴾، وكما جاء فى الحديث الشريف «لا تفضلونى على الأنبياء» ﴿ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴾ كتابًا فيه هدى.

***

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلا تَحْوِيلاً (٥٦) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا (٥٧) ﴾

قل للذين يعبدون المخلوقين ويؤلهونهم من دون الله، إن زعمتم أنهم آلهة تفيد وتضر فادعوهم عندما ينزل بكم البلاء، عندئذ تعرفون أنهم عاجزون عن رفع الضر عنكم أو تغيير أحوالكم، وأولئك الذين تجعلونهم آلهة لكم، سواء كانوا ملائكة أو بشرًا، فهم مثل كثير من الخلق يسعون ويتسابقون فى التقرب إلى الله، يطمعون فى رحمته ويخافون عذابه، وعذاب ربك جدير بأن يحذر منه أولو الألباب.

***

﴿ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِى الْكِتَابِ مَسْطُورًا (٥٨) وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا (٥٩) ﴾

قال مقاتل: [ أما الصالحة فبالموت، وأما الطالحة فبالعذاب] ونقل قوله القرطبى، كذلك نقله الألوسى وأضاف: [وهو ظاهر ماروى عن مجاهد، وذهب إليه الجبائى وجماعة]، وقال

الزمخشرى: [﴿نَحْنُ مُهْلِكُوهَا﴾ بالموت أو الاستئصال ﴿أَوْ مُعَذِّبُوهَا﴾ بالقتل وأنواع العذاب. وقيل الهلاك للصالحة، والعذاب للطالحة ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ فى اللوح المحفوظ]، والآية فى أبسط وأظهر معانيها تؤكد للبشر أنه لن يخلد منكم أحد، فكلكم ميت، وبعضكم يُعذب عذابًا شديدًا ليموت، فاعملوا لآخرتكم ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ﴾ المراد الآيات التى اقترحتها قريش من قلب جبل الصفا ذهبًا، وإحياء الموتى وغير ذلك. وعادة الله فى الأمم أن من اقترح منها آية ثم لم يؤمن أن يُعاجل بعذاب الاستئصال قال المراغى: [روى أحمد عن ابن عباس قال: سأل أهل مكة النبى (ﷺ) أن يجعل لهم الصفا ذهبًا، وأن ينحى الجبال عنهم فيزرعوا، فقيل له إن شئت أن نستأنى بهم (نصبر عليهم)، وإن شئت أن يأتيهم الذى سألوا، فإن كفروا هلكوا كما أهلكت من قبلهم من الأمم، قال بل نستأنى بهم، وأنزل الله الآية] ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا﴾ عندما نرسل بالمعجزات، نقصد تخويف المتكبرين الجاحدين من نزول العذاب[1]، وقوم ثمود مَثَل لمن طلب آية من ربه، فلما أرسل إليهم الناقة تكبروا وجحدوا وعقروها، فحاق بهم عذاب الاستئصال.

***

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَانًا كَبِيرًا (٦٠) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (٦١) قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً (٦٢)﴾

وإذ قلنا لك يا محمد إن ربك قادر وقابض على الخلق فلا تحزن ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ﴾ قيل هى الإسراء[2]، وقيل بل المقصود بالرؤيا انتصار المسلمين وما أراه الله من مصارع قريش ﴿إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ فقد فتنت قريش وانقسموا بين مُصدِّق ومُكذِّب ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ المقصود شجرة الزقوم التى جاء ذكرها فى سورة الدخان ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ الأَثِيمِ (٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ(٤٦)﴾ فازداد قوم بها إيمانًا وازداد آخرون بها كفرًا، كما سيأتى فيما بعد، وهى ملعونة لأن من يأكل منها هم

(١) إنه لأمر جدير بالاعتبار والتفكير، أن أكثر رسولين أوتوا معجزات حسية، موسى(ﷺ)، وعيسى (ﷺ)، لقيا معارضة ورفضًا كبيرًا، ولحق بما جاءا به تغيير وتحريف وسوء فهم هائل.

(٢) ربما يؤيد هذا اللفظ ﴿الرُّؤْيَا﴾ من قال إن الإسراء كان بالروح وليس بالجسد، وللذين يعتبرون أن نقل الجسد أكثر إعجازًا من نقل الروح أو﴿الرُّؤْيَا﴾ فربما تجعلهم معرفة أن البشرية عرفت الانتقال بالسفن والقطارات قبل أن تعرف نقل الصور التليفزيونية يراجعون ما يرون.

الملعونون ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ ﴾ وسجود الملائكة كما ذكرنا فى سورة البقرة تكريمًا للعلم الذى حبا الله به آدم، أما إبليس فقد أبى واستكبر وقال متعاليًا: كيف أسجد لمن خلقته من الطين؟! ثم قال لله متحديًا: هذا الإنسان الذى كرمته علىَّ، لو أعطيتنى مهلة إلى يوم القيامة، أهيمن وأستولى على غالبية ذريته، وأحرفها عن الصراط المستقيم ﴿ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾.

* * *

﴿ قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُوراً (٦٣) وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً (٦٤) إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلاً (٦٥) ﴾

قال تعالى للشيطان اذهب، وجزاؤك أنت ومن سيتبعك من بنى الإنسان جهنم، جزاءٌ وافر، واستخف بمن استطعت منهم، واستحثهم على اتباعك بكل وسائلك، من الصوت إلى شن حرب الغواية عليهم، واجعل لك إن استطعت نصيبًا فى أموالهم وفى أولادهم بإغواءاتك وتحذيراتك المضللة الزائفة، وابسط لهم وعودك الكاذبة لتغرهم بحياتهم الدنيا ولكن ليس لك سلطان على عبادى المتقين ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلاً ﴾.

* * *

﴿ رَبُّكُمُ الَّذِى يُزْجِى لَكُمُ الْفُلْكَ فِى الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً (٦٦) وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِى الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنسَانُ كَفُوراً (٦٧) أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً (٦٨) أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفاً مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً (٦٩) ﴾

ربكم هو الذى يُجرى الفلك فى البحر ـ بدفع الهواء وبخاصية طفو الخشب على الماء، قديمًا، وحديثًا باكتشاف الإنسان العديد من قوانين الطبيعة المسخرة لخدمته، فتسير السفن الكبيرة بالطاقة الناتجة من احتراق الوقود، وتصمم هياكل السفن بحيث يحملها الماء فلا تغرق ـ لتحققوا منافع متعددة لكم، إنه رءوف رحيم بكم ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِى الْبَحْرِ ﴾ من أمواج ودوامات واضطرابات وأعاصير ﴿ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾ تاهت وغابت عنكم جميع آلهتكم، وتخلص جوارحكم إلى الله داعين: يا ألله يا ألله، لا أحد سواك ينجينا، فإذا ما

استجاب لكم ربكم وصرف عنكم السوء ونزلتم فى بر الأمان، أعرضتم ـ وضرب الله ذلك المثل بالضرر فى البحر، ولكن حياة كل إنسان بها أمثلة مشابهة وهو فى البر، فيدعو الله حين يمسه الضر، ثم يعرض بعد الفرج ـ ﴿وَكَانَ الإِنسَانُ كَفُوراً﴾ جحوداً بنعم الله، إلا من رحمه ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ﴾ إن نجوتم من الغرق، فهل ضمنتم ألا يخسف الله بكم الأرض أو يرسل عليكم ﴿حَاصِباً﴾ ريحًا ترميكم بالحصباء فتهلككم ﴿ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً﴾ يحفظكم من أمرنا ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ أم أمنتم أنكم لا تعودون لركوب البحر ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفاً مِّنَ الرِّيحِ﴾ ريحًا تقصفكم ﴿فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً﴾ فيغرقكم بكفركم ولا تجدون تابعين لكم ينفعونكم.

***

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً (٧٠) يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُوْلَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً (٧١) وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلاً(٧٢)﴾

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ يحق لكلّ أمرئ أن يمتلأ ثقة بالنفس وبخالقها، وطمأنينة تقرّ بها عينه طوال حياته.. لقد كرمه رب العالمين، فمن ذا الذى يجرؤ على إهانته؟ ومن يستطيع أن يهين من أكرمه رب العالمين؟ لو حق إيمان المرء لما استطاعت قوة إهانته، وهل يبحث المرء السوى فى حياته كلها عن أعز وأغلى من كرامته، هو وعائلته؟ الوحيد الذى يستطيع أن يهين الإنسان الذى كرمه الله هو نفس هذا الإنسان، عندما تنحرف عن: لا إله إلا الله، وتسير وراء آلهة أخرى، فتستبدل الذل والنفاق والخنوع والانتهازية، أو الطمع والأثرة والتكبر ـ بالكرامة ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ بوسائل متجددة، كانت الدواب والمراكب قديمًا، وبما نعلم الآن، وبما يأتى فى المستقبل ولا نعلمه ﴿وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ متع الحياة الدنيا الحلال ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ جعلهم الله خلفاء له فى الأرض، ومنحهم علمًا، وأمر الملائكة بالسجود تكريمًا له، وكرمهم، وسخر الطبيعة لخدمتهم، ووعدهم بجنات فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، إذا ما لم يشركوا به أحدًا! ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ يوم الحساب، ندعو كل جماعة باسم من اتبعوه وساروا على نهجه من رسول، أو عالم صالح أو طالح، أو زعيم وقائد هاد أو مضل، وقال بعض المفسرين أن إمامهم هو كتاب أعمالهم، وكل هذا تحتمله الآية ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ فمن تناول كتاب أعماله بيده اليمنى ﴿فَأُوْلَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾

سيقبلون على استعراض سجل أعمالهم فرحين مستبشرين، ولا ينقص من أجرهم قدر فتيل، أى قدر الخط الذى فى شق النواة ﴿وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ من كان ضالاً فى الدنيا لا يرى الطريق المستقيم ﴿فَهُوَ فِى ٱلْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ لا يرى طريق النجاة، وأضل سبيلاً لأنه فقد سبيل التوبة والإنابة إلى الله والإيمان به، الذى كان متاحًا له فى الدنيا، والله أعلم.

* * *

﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾

﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ﴾ عملت قريش ومن تحزب معها من العرب واليهود كلّ ما فى وسعها لمنع محمد (ﷺ) من إبلاغ رسالته ونشر الإسلام، من إيذاء وقمع ومقاطعة، واعتداء وقتل، ثم محاولات لاستئصال المسلمين بالحروب، وكما لم تنجح فى منع الرسول (ﷺ) من القيام بالدعوة، حاولت أن تجعله يغير فيها بما يرضون عنه، وربما تتحدث الآية عن حادثة بعينها، ولكن تعددت أقوال المفسرين فى ذلك، ولعل أفضلها ما قاله الطبرى: [لا بيان فى الكتاب، ولا فى خبر صحيح عن الرسول (ﷺ)، فلا شىء فيه أصوب من الإيمان بظاهره، حتى يأتى خبر يجب التسليم له ببيان ما عنى بذلك منه] ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ﴾ على الحق بعصمتنا إياك عما دعوك إليه ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ لقد كدت تميل إليهم عن الحق شيئًا ما. وعن قتادة: لما نزلت هذه الآية، قال النبى ﷺ: «اللهم لا تكلنى إلى نفسى طرفة عين» رواه الطبرى ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ إن فعلت ذلك لأذقناك ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الآخرة. قال المفسرون: [أصل الكلام: لأذقناك عذابًا ضعفًا فى الحياة، وعذابًا ضعفًا فى الممات، ثم حذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه، وهى الصفة، ثم أضيفت] واللفظ للزمخشرى، وأضاف البيضاوى: [قيل الضعف من أسماء العذاب] ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ ثم لا تجد من ينصرك علينا ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ تعددت الأقوال فى تأويل الآيتين، فأحدها أن قريش كادت تزعج الرسول (ﷺ) وتستخف به لتخرجه

من مكة، وفى هذه الحال، لن يلبثوا بعد خروجه إلا قليلاً، ويهلكهم الله كما حدث للأقوام السابقة، مثل قوم هود وصالح ولوط وشعيب، وتلك هى سنة الله التى لا تتغير. ولكن للمعترض على هذا التأويل أن يقول إن قريش بالفعل أزعجت الرسول (ﷺ) واستخفت به وبالمؤمنين، وأنها أخرجته طبقًا لما جاء فى سورة محمد ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِى أَخْرَجَتْكَ﴾ [الآية ١٣]، وثانيها أن المقصود ما حدث فى المدينة، حين أراد اليهود استفزاز الرسول (ﷺ) ليذهب إلى الشام بدعوى أنها مبعث الأنبياء، ولكنه لم يخرج. وثالثها أن المقصود بالأرض أرض العرب كلها، فعندما استفزه أهل مكة، ذهب إلى الطائف، فصده أهلها، ولكن هيأ الله له أهل المدينة، فهاجر إليها ونصروه، وهذا التفسير أجدر بالقبول، ففيه أن ليس كل العرب رفضوا رسالته واستفزوه، وخاصة أن الكلمة المستخدمة فى هذه الآية هى ﴿الأَرْضِ﴾ بينما جاء فى آية إخراجه (ﷺ) كلمة ﴿قَرْيَةٍ﴾ فالأولى أن تكون الأرض هى أرض العرب كلها، أى شبه الجزيرة العربية بما فيها المدينة التى آمنت وآوت ونصرت الرسول (ﷺ) ورسالته، وأن يكون الذى أخرجه هو قرية مكة، وبذلك لم يقع استفزاز الرسول (ﷺ) من كل أرض العرب، ولذلك لم ينزل بهم عذاب الاستئصال. ورابعها أن الضمير فى ﴿لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾ يعود على زعماء قريش وليس قريش كلها، وقد هلك أولئك الزعماء فى بدر بعد الهجرة بحوالى ثمانية عشر شهراً، والتأويل الثالث والرابع هما الأقرب للقبول، والله أعلم.

وجدير بالذكر أن الآيات من ٧٣ إلى ٨٠ هى آيات مدنية، أى أن الآيات الخمسة السابقة تتحدث عن ماض حدث بالفعل.

***

﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾

﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ دلوك الشمس هو بدء الزوال، فالمعنى أقم الصلاة لزوال الشمس، أى صلاة الظهر، وقيل صلاة الظهر وبعدها العصر، فهما قبل الظلام ﴿إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ ظلمته، وقيل هى صلاة المغرب، وقيل صلاة العشاء، وقيل الاثنين ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ صلاة الصبح ـ وهناك الآية الأخرى ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَىِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ﴾

[هود: ١١٤] فيكون القرآن قد أجمل الصلاة، وبينت السنة أوقاتها كما بينت عدد ركعاتها وهيئاتها ـ ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ قال الزمخشرى: [يشهده ملائكة الليل والنهار، أو يشهده الكثير من المصلين فى العادة، أو من حقه أن يكون مشهوداً بالجماعة الكثيرة]، بينما قال الرازى: [يشهد الإنسان فيه آثار القدرة وبدائع الحكمة فى السماوات والأرض، فهناك الظلام الحالك الذى يزيله النور الساطع، وهناك يقظة بعد الخمود والغيبوبة عن الحس إلى نحو ذلك من مظاهر القدرة فى الملك والملكوت، فكلّ العالم يقول بلسان حاله أو مقاله: سبوح قدوس رب الملائكة والروح] ـ وكأنما استلهم الرازى ذلك من سورة الفرقان ﴿وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (٦٢)﴾ ـ ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ﴾ قال الزمخشرى: [التهجد هو ترك الهجود (النوم) للصلاة]، والمقصود هو صلاة الليل، بعد صلاة العشاء، وروت السيدة عائشة (رضي الله عنها) أن الرسول (ﷺ) كان يصلى إحدى عشرة ركعة فى رمضان وفى غير رمضان ﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ وهو مقام الشفاعة العظمى ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ ادع يا محمد ربك أن يدخلك فى مهمة إبلاغ الرسالة مدخلاً صادقًا، وتقوم بها بصدق حتى تخرج من الدنيا مخرجًا صادقًا، وأن يهب لك حجة من عنده تنتصر بها على الجاحدين ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ﴾ وقل جاء الدين الحق ﴿وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ زال الباطل ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ زائلاً.

* * *

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (٨٢) وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا (٨٣) قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا (٨٤)﴾

تنزل من آيات القرآن ما يشفى صدور المؤمنين ويرحمهم من عزم أمور الدنيا وابتلاءاتها، بهدايتهم للصراط المستقيم فى الدنيا، وجنات الله ورضوانه فى الآخرة، وتزيد تلك الآيات الظالمين استكباراً وجحوداً وعناداً ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ﴾ ومن الناس من إذا إعطاه الله طغى وبغى وأعرض عن شكر الله ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا﴾ وإذا مسه الضر، سواء فى صحة أو مال أو ولد، تملكه اليأس ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا (٨٤)﴾ يعمل كل امرىء على طريقته حسب معدنه، والله أعلم بمن يتبع سبل الهدى ومن يتبع سبل الضلال. وروى أن البعض سألوا الصحابة عن أرجى آية فى القرآن، فتنوعت إجاباتهم، وقال أبو بكر (رضي الله عنه): ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾ وقصد بذلك

أن البشر يعملون على شاكلة البشر الخطائين، ويعمل الله حسب ذاته العلية، وهو يرجو رحمة الله وعفوه وغفرانه، ثم فضله وكرمه ووده، ونحن مع الصدِّيق فى رجائه.

***

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً (٨٥) وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً (٨٦) إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيراً (٨٧) ﴾

تعددت أقوال المفسرين فى هذه الآية، فهناك قول بأن السائلين من قريش، وقول آخر أنهم اليهود بالمدينة، وقول ثالث أن السائل قريش بإيعاز من اليهود، ثم تعددت الأقوال فى المقصود بالروح، هل هى روح الإنسان؟ أم جبريل طبقًا لقوله ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ(١٩٤) ﴾ [الشعراء]، أم القرآن؟ قال ابن القيم هى المذكورة فى ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ ﴾ [النبأ: ٣٨]، وقال المراغى: [فى هذه الآية ثلاثة آراء: القرآن، وهو المناسب لما تقدمه ولما بعده، وجبريل عليه السلام، وهو قول الحسن وقتادة... والروح الذى يحيا به بدن الإنسان؛ وهذا هو قول الجمهور] والأظهر هو قول الجمهور، وأن السؤال هو عن روح الإنسان؛ لأن للقرآن أوصافًا وشروحًا كثيرة يمكن الإجابة بها عن السؤال، كذلك هناك بضعة آيات عن الملائكة، ويعلم الجميع مؤمنون وملحدون، مسلمون ومسيحيون ويهود أن الملائكة من أمور الغيب، أما الروح فهى حياة الإنسان، وجديرة بالسؤال عنها، خاصة لمن يريد أن يسأل تعنتًا، وجاءت إجابة الخالق، قل لهم يا محمد ﴿ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ فهذه إجابة شافية للمؤمنين، مسكتة لغيرهم ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ ولئن أراد الله لأذهب عن الناس ما أوحى به إلى محمد (ﷺ)، فكأنما الآية تجيب أن تقبل ذلك الوحى والعمل به لهو من عمل الروح التى تسألون عنها، وبقية الإنسان ما هى إلا ركام من لحم وعظم ودم وأعصاب، لا علاقة لها بالوحى والإيمان والخلافة والتكليف ﴿ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً ﴾ ثم لا تجد من تتوكل عليه من أمر ربك ﴿ إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيراً (٨٧) ﴾ وما منع إذهاب الوحى إلا رحمة ربك، وفضله عليك وعلى من بلَّغته رسالة ربك كبير، والخطاب فى الآيتين الأخيرتين لرسوله وللمؤمنين.

***

﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا (٨٩) ﴾

قل لهم يا محمد متحديًا: لو اتحد الإنس والجن على أن يأتوا بكتاب مثل القرآن فلن ينجحوا ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ ولقد عرضنا فى هذا القرآن من الأمثال والقصص والعبر ما يكفى، ولكن رفض أكثر الناس إلا أن يصروا على الكفر.

* * *

﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً (٩٣) ﴾

تعنتت قريش، كما تعنتت أقوام قبلها، وبدأوا يملون شروط إيمانهم بمحمد (ﷺ)، كما لو كان فى حاجة لذلك، أو كما لو كانوا سيمنون على ربهم بالإيمان بعد أن يستجيب لأهوائهم، فطلبوا أن يفجر محمد (ﷺ) ينبوع ماء، أو تصير له جنة من نخيل وعنب ذات أنهار، أو يأتيهم بعذاب من السماء ﴿ كِسَفًا ﴾ قطعًا قطعًا، أو يأتيهم بالله، سبحانه وتعالى، ومعه الملائكة قبيلة قبيلة، أو ليرى أهل مكة الله والملائكة مقابلين لهم، أو يصير له بيتًا مزخرفًا، أو يصعد أمامهم فى السماء ثم يهبط إليهم وأمام أعينهم بكتاب يقرأوه. وهم بتلك الطلبات يريدون لأنفسهم طريقًا آخر غير الذى أراده الله لهم، وهو استخدام فطراتهم ومداركهم، وتذكُّر شهاداتهم الأولى مع الله بربوبيته، مما يؤهلهم بعد ذلك لحمل تكاليف الخلافة، ولو أراد الله إجبارهم على الإيمان برسله لفعل. ثم أمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ محمدًا (ﷺ) أن يجيبهم قائلاً: ﴿ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً ﴾.

* * *

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً (٩٤) قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً (٩٥) قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٩٦) ﴾

ما الذى منع الناس أن يؤمنوا بالرسالة وما فيها من هدى إلا أن تحججوا: هل يمكن أن يبعث الله رسولاً من البشر؟ قل لهم يا محمد: لو كنتم ملائكة لأنزلنا عليكم ملكًا رسولاً، وقل لهم يا محمد: إن أنكرتم رسالتى فيكفينى أن الله شاهد على تبليغى الرسالة ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾.

***

﴿وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا (٩٧) ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٩٨) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا (٩٩)﴾

ومن يهد الله هو المهتدى الحقيقى، ومن يُضلل الله، بسبب تكبره وجحوده، هو الضال الحقيقى الذى لن يجد له وليّا ينفعه، وسيحشره الله يوم القيامة فى جهنم أعمى وأبكم وأصم عن طريق النجاة والفوز، كلما خفتت نيران جهنم، زادها الله اشتعالاً، جزاء تكبرهم وجحودهم، ورفضهم البعث بحجة تآكل جثثهم. ثم يوجه القرآن سؤالاً استنكاريّا: ألا يقدر الذى خلق السماوات والأرض أن يعيد خلقهم؟ بلى، وجعل لهم ميعادًا للبعث مهما رفضوا وكفروا.

***

﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّى إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنفَاقِ وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا (١٠٠)﴾

وهكذا الإنسان؛ الشح من طبعه، ولو ملك خزائن السماوات والأرض فسيقبض يده خشية الإنفاق ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا﴾ وكان الإنسان مقترًا شديد البخل، إلا من رحم ربى.

***

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِى إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا (١٠١) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا (١٠٢)﴾

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ ﴾ تسع معجزات فصَّلتْها سورة الأعراف، قال الزمخشرى: [عن ابن عباس ﷺ: هى العصا، واليد، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والحجر، والبحر، والطور الذى نتقه (رفعه) على بنى إسرائيل]، وقال المراغى: [وقد ذكر سبحانه فى كتابه العزيز ست عشرة معجزة لموسى عليه السلام:

(١) إنه أزال العقدة من لسانه، أى أذهب العجمة عن لسانه وصار فصيحًا.

(٢) انقلاب العصا حية.

(٣) تلقف الحية (عصاه) حبالهم وعصيهم على كثرتها.

(٤) اليد البيضاء.

(٥ و ٦ و ٧ و ٨ و ٩) الطوفان، والجراد، والقُمَّل، والضفادع، والدم.

(١٠) شق البحر.

(١١) انفلاق الحجر (وتفجر عيون الماء منه) فى قوله: ﴿ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ﴾ [البقرة: ٦٠]، ﴿ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ﴾ [الأعراف: ١٦٠].

(١٢) إظلال الجبل فى قوله: ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ ﴾ [الأعراف: ١٧١].

(١٣) إنزال المن والسلوى عليه وعلى قومه.

(١٤ و ١٥) الجدب ونقص الثمرات فى قوله: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ ﴾ [الأعراف: ١٣٠].

(١٦) الطمس على أموالهم من الحنطة والدقيق والأطعمة.

وقد اختلفوا فى المراد من هذه التسع. أخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر من طرق عدة عن ابن عباس أنها العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والسنون ونقص الثمرات، وهذه هى الآيات التى نزلت لفرعون وبطانته.

وقيل المراد بالآيات الأحكام، فقد أخرج أحمد والبيهقى والطبرانى والنسائى وابن ماجة «أن يهوديين قال أحدهما لصاحبه: انطلق بنا إلى هذا النبى فنسأله، فأتياه (ﷺ) فسألاه عن قول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ فقال عليه الصلاة والسلام: «لا تشركوا بالله شيئًا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق، ولا تسرقوا، ولا

تسحروا، ولا تأكلوا الربا، ولا تمشوا ببرىء إلى ذى سلطان ليقتله، ولا تقذفوا محْصَنَة، وأنتم يا يهود عليكم خاصة ألا تعْدُوا فى السبت»، فقبّلا يده ورجله وقالا نشهد أنك نبى، قال فما يمنعكما أن تُسْلما؟ قالا إن داود دعا ألا يزال من ذريته نبى، وإنا نخاف إن اتبعناك أن تقتلنا يهود». قال الشهاب الخفاجى: وهذا هو التفسير الذى عليه المعوّل فى الآية]، وكذلك روى الزمخشرى الحديث، ولكنه لم يعلق عليه ﴿فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ عن هذه الآيات فى التوراة التى يعرفها علماؤهم ﴿إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ إما قد سحروا لك لتُجَنَّ أو أنك ساحر، وكل هذه الآيات من سحرك. قال موسى (ﷺ) لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ أنت تعلم أن الذى أنزل هذه المعجزات البينات هو الله، ولكنك تنكرها تكبرًا وجحودًا ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ ولذلك فإنى أظنك مصروفًا عن الخير هالكًا.

***

﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا (١٠٣) وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا (١٠٤)﴾

وأراد فرعون ﴿أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الْأَرْضِ﴾ يزعجهم ويستخفهم، فكانت نهايته الغرق هو وجنوده فى اليم، وقال الله لبنى إسرائيل: ﴿اسْكُنُوا الْأَرْضَ﴾ أكثر المفسرين، إن لم يكن كلهم، على أنها الشام ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ يوم الحساب، نجمعكم وكل البشر مختلطين.

***

﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (١٠٥) وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا (١٠٦) قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا (١٠٩)﴾

﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ الحق أن الله هو الذى أنزل القرآن، وأنزله بالحق ليهدى الناس إلى الإيمان الحق، وإلى العمل الحق الذى يقوم على الموازين الحق، وما أرسلناك يا محمد للناس إلا رحمة بهم، تدعوهم إلى الله، مبشرًا من يستقيم بالجنة، ومنذرًا من يجحد

ويتكبر ويتبع هواه بجهنم ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ﴾ أنزلناه على فترات طويلة استجابة للمواقف والحوادث والحاجات، حتى يدركوا غاياته وينتفعوا به ﴿وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً﴾ ليستقر فى قلبك وقلوب المؤمنين ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا﴾ فإن إيمانكم لن ينفع إلا أنفسكم، وجحودكم لن يضر إلا إياها ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ﴾ الذين يعلمون من أهل الكتاب ومن غيرهم بأن هناك رسولاً لآخر الزمان ويتوقعونه، إذا سمعوا آيات القرآن يقعون ساجدين لله، موقنين بانجاز الله وعده، ويبكون ويزدادون خشوعًا.

***

﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً (١١٠) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِىٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا (١١١)﴾

﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ نقل المفسرون أن أبا جهل، أو غيره، سمع الرسول (ﷺ) يدعو الرحمن، فظنوا أن ذلك إلهًا آخر، فقال: كيف يدعو محمد لعبادة إله واحد؟ فنزلت الآية تبين أن لله الأسماء الحسنى، يدعوه المؤمن بأىّ منها، ثم أمرت الرسول (ﷺ) والمسلمين أن يتوسطوا فى قراءتهم فى الصلاة، فلا يرفعوا أصواتهم ولا يخفضوها.

وختام الآية أمر للرسول (ﷺ) ومن معه من المسلمين بحمد الله الواحد الأحد، الغنى عن الولد وعن الشريك، وعن الولى؛ لأنه لولا أنه واحد أحد لتمزقت البشرية بين الآلهة المتعددة ومرجعياتها المختلفة، ثم ﴿كَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ عن أىّ نقص أو ولد أو شريك.

***

ترتيبها
١٨

# سورة الكهف

آياتها
١١٠

مكية(*)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا (١) قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (٣) وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (٤) مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (٥) ﴾

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ ﴾ الحمد لله على ما تفضل به من إنزال القرآن هدى ورحمة للناس، يبشر المؤمنين وينذر المتكبرين ﴿ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ﴾ انحرافًا أو اختلافًا أو تناقضًا ﴿ قَيِّمًا ﴾ قائمًا مستقيمًا على مصالح وهداية المؤمنين دنيا ودينًا ﴿ لِّيُنذِرَ ﴾ ليحذر أولى الألباب من عصيان الله بإهدار تكليف الخلافة، وعقاب ذلك ﴿ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ ﴾ عذابًا شديدًا عاجلاً أو آجلاً ، أو كلاهما، من عند الله ﴿ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴾ فى الجنة وإنهم ﴿ مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴾ متنعمين فى ثواب ذلك العمل للأبد ﴿ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ ﴾ فهم أخطأوا العلم اليقينى بذلك الظن الخاطئ، هم وأباؤهم ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ﴾ كبرت شناعة وقبح وضلال تلك الكلمة ﴿ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ .

* * *

(*) إلا آية ٣٨، ومن الآية ٨٣ إلى ١٠١ فمدنية .



obeikandi.com

﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ ﴾

فلعلك يا محمد قاتل نفسك أو مهلكها، أسفًا وحزنًا على إعراضهم عما تدعوهم إليه. إنا جعلنا على الأرض متعًا دنيوية لنختبر الناس بها، فمنهم من يستقيم على الحق رغم إغراءاتها، ومنهم من ينحرف عن أمانة التكليف سعيًا وراء أهوائه، وإنا لجاعلون كل ما على الأرض ترابًا أجرد لا زرع فيه، فلا دوام لأى متع أرضية، وكلها فانية كأنها لم تكن.

***

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾ ﴾

أنكر الماديون الله والبعث، وأنكر المشركون قدرة الله على إحياء الموتى، فكانت قصة أهل الكهف ليعتبروا بها، وتعددت أقوال المفسرين فى الرقيم، فقيل اسم القرية أو الوادى الذى كان الكهف به، وقيل بل هو لوح أو كتاب به أسماؤهم، أو قصتهم، وقيل إن ذلك فى مكان ما قريب من أفسس، أو طرطوس بتركيا، وقبل أن تقص الآيات حياتهم، تنبه السامعين أنها لا تمثل شيئًا يذكر فى قدرة الله، ثم تبدأ القصة بإخبارنا أن أصحاب الكهف هم فتية مؤمنون، لجأوا إلى الكهف خوفًا من بطش قومهم المشركين، ودعوا ربهم أن ينزل عليهم رحمته ويرشدهم فى أمورهم. فأنزل الله عليهم نومًا لسنين طويلة داخل الكهف، ثم أيقظهم من نومهم ﴿ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴾ تعددت أقوال المفسرين فى ﴿ الْحِزْبَيْنِ ﴾ ويبدو أن المقصود ظاهريًا الفتية أنفسهم كحزب، وأحفاد قومهم الذين بعثوا إلى الحياة فى زمانهم الحزب الثانى، والعبرة هنا فى إظهار قدرة الله على البعث يوم الحساب، وإظهار نسبية الوقت، وقصر الحياة الدنيا للمغترين بها والغافلين فيها عن ديمومة الآخرة، ولأهل التأويل الباطنى أن يقولوا بل المقصود حزب المؤمنين وحزب الكافرين بالله والكافرين بالبعث والحساب، وليعلموا ﴿ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا ﴾ كما سيجىء فى الآية ٢١، وإحصاء المؤمنين هو أن الساعة قادمة لا ريب فيها، مهما طال اللبث على الأرض، وإحصاء الكافرين يجسده تساؤلهم وتحديهم: متى هذا الوعد إن كنتم صادقين؟ فكأنه لن يأتى أبدًا. والمسألة الأخيرة فى الآية ﴿ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴾ فالله عالم

الغيب والشهادة ـ ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤] ـ فالمقصود ليعلم الناس، وذلك مثل قوله تعالى ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥]، وراجع شرحًا أكثر تفصيلاً فى الآية ١٤٣ من سورة البقرة.

* * *

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (١٣) وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (١٤) هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (١٥)﴾

نحن نقص عليك ـ يا محمد ـ خبر فتية أهل الكهف بالصدق؛ إنهم كانوا فتيانًا مؤمنين بربهم الواحد الأحد فزدناهم هدى، وشددنا عزمهم وقلوبهم فى الحق، وقالوا جهاراً نهاراً: ﴿رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ لن ندعوا أحدًا من دون الله، ولو دعونا غير الله لكان قولنا تجاوزًا عن الحق والصواب، وراحوا يتحدثون فيما بينهم: لقد اتخذ قومنا آلهة من دون الله، ولكنهم لا يأتون بحجة على ذلك ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾.

* * *

﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا (١٦) وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا (١٧)﴾

قال الفتيان لبعضهم البعض: ما دمنا قد اعتزلنا قومنا وما يعبدون، فلنفر إلى الكهف لنختبئ فيه، ينزل الله علينا رحماته، ويترفق بنا فى أمورنا ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ﴾ فإذا أشرقت الشمس مالت أشعتها عنهم إلى اليمين حتى لا تؤذيهم، وإذا غربت تميل عنهم ناحية اليسار، وهم فى مكان متسع من الكهف ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ من يهده الله لصراطه المستقيم، فهو المهتدى الحق، ومن يضله بسبب تكبره وجحوده، فلن يرشده أحد.

* * *

﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا (١٨) ﴾

هذه الآية ترسم حال أهل الكهف خلال رقدتهم السنين الطويلة، فلو نظرت إليهم تحسبهم أيقاظًا على الرغم من أنهم مستغرقون فى النوم، ونقلبهم على جنوبهم يمينًا ويسارًا حتى لا تأكل الأرض أجسامهم، وكلبهم أيضًا غارق فى نومه باسط ذراعيه بفناء الكهف، لو رأيتهم لأصابك الرعب وفررت منهم من شدة الخوف.

* * *

﴿ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا (١٩) إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا (٢٠) ﴾

بعث الله الفتية المؤمنين من نومهم وراحوا يتساءلون كم لبثنا فى الكهف؟ قال بعضهم: لبثنا يومًا أو جزءًا من اليوم، وقال آخرون: الله أعلم بالوقت الذى مكثناه، وشعروا بالجوع، فأرسلوا أحدهم إلى السوق بما معه من عملة فضية ليشترى طعامًا حلالاً، وأوصوا صاحبهم بألا يلفت الأنظار إليه؛ خشية أن يتغلب عليهم قومهم، فيقتلوهم رجمًا أو يعيدوهم فى ملتهم، فيخسروا الدنيا والآخرة.

* * *

﴿ وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا (٢١) ﴾

بعد أن أنمناهم كل هذه السنين، أيقظناهم وأطلعنا قومهم عليهم ليعلموا أن وعد الله بالبعث حق لا شك فيه؛ إذ أن أصحاب الكهف قد ناموا ثلاثمائة سنة ثم استيقظوا. ثم راحوا يتنازعون فى أمر الفتية، فقال بعضهم: ابنوا بنيانًا عظيمًا على باب الكهف واتركوهم وشأنهم لله، وقال أصحاب الغلبة والنفوذ ﴿ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾ نصلى فيه تبركًا بهم.

* * *

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا (٢٢) وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا (٢٤) ﴾

سيقول فريق من الناس إنهم كانوا ثلاثة نفر ورابعهم كلبهم، وسيقول آخرون كانوا خمسة وسادسهم كلبهم، رميًا بالقول فى الغيب الذى لا يعلمونه، وقال البعض الآخر كانوا سبعة وثامنهم كلبهم، فقل لهم يا محمد ﴿ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم ﴾ الله أعلم بعددهم، وإن الذى يعلم عددهم قليل ممن فتح الله عليهم، فلا تجادل فيهم إلا جدالاً ظاهرًا، لا تسأل أحدًا عن نبئهم ولا تقل إنك ستفعل شيئًا فى المستقبل، ولكن قدِّم المشيئة، أى قل إن شاء الله سأفعل كذا أو كذا، واذكر ربك إذا نسيت أن تقدم المشيئة ﴿ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ﴾ عسى أن يوفقنى الله لما هو أفضل من أن أنسى، أو لأفضل مما نسيته، مثلما جاء فى سورة البقرة ﴿ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا ﴾ [١٠٦]، وليست العبرة فى عددهم، ولكن فى بعث الله الفتية بعد نومهم فى الكهف أكثر من ثلاثمائة سنة.

❊❊❊

﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (٢٥) قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا (٢٦) وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٧) ﴾

ومكث الفتية فى كهفهم نيامًا ثلاثمائة وتسع سنين، وقيل إنها ثلاثمائة سنة شمسية يقابلها نحو ثلاثمائة وتسع سنوات قمرية. قل لهم يا محمد: الله وحده يعلم كم لبثوا، هو وحده علام الغيوب ﴿ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ﴾ صيغتا تعجب أى: ما أبصره وما أسمعه، وما هذا إلا تبسيط لأفهام عقول الناس وقت نزول القرآن، حين سادت الأفكار الشائهة عن الله، فالله هو خالق ظاهرة الإبصار وظاهرة السمع، وهو خالق ما يبصر وما يسمع، وما يُبصر وما يُسمع، وليس لهم ناصر غيره، وله الحكم والأمر وحده، واتْلُ عليهم قرآن ربك، وليس هناك من يستطع تغيير ما سطره وقدره للعالمين، ولن تجد من دون الله ﴿ مُلْتَحَدًا ﴾ ملجأ تركن إليه.

❊❊❊

﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (٢٨) ﴾

والزم نفسك مجالسة الذين يؤمنون بالله ويسعون فى سبيله ويبتغون مرضاته طرفى النهار، والمقصود كل وقت، ولا تتخطاهم بسبب فقرهم أو أنسابهم وتتطلع إلى أثرياء ووجهاء قريش، ولا تطع أولئك الذين استهوتهم الدنيا وغرتهم، فأغفلهم الله عن ذكره بسبب تكبرهم وجحودهم واتباعهم أهواءهم، فأولئك هم الذين أسرفوا على أنفسهم، والخطاب للأمة الإسلامية كلها، وإلى يوم الدين.

* * *

﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا (٢٩) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا (٣٠) أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا (٣١) ﴾

وقل لهم يا محمد: هذا هو الدين الحق من لدن الله، وأنتم مخيرون بين الإيمان والكفر، واعلموا أن الله أعد للكافرين نارًا تحيط بهم كالسرادق ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا ﴾ مما يجدون، يغاثون بماء كالمعدن المصهور ﴿ يَشْوِي الْوُجُوهَ ﴾ من سخونته ﴿ بِئْسَ الشَّرَابُ ﴾ وساء المتكأ والمرفق. أما الذين آمنوا وعملوا صالحًا، فإن الله يجزيهم خير الجزاء فى جنات عدن ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ ﴾ من الحرير الرقيق ﴿ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ الحرير السميك ﴿ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ وجاء فى الحديث الشريف «أعددت فى جنتى لعبادى ما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» رواه البخارى وأحمد.

* * *

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (٣٢) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا (٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا (٣٦) ﴾

وهذه قصة أخرى؛ إذ قال تعالى لرسوله (ﷺ): بيِّنْ لهم مثل رجلين، جعل الله ﴿لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ أخرجت كلٌّ من الجنتين ثمارها، ولم يتلف منها شيء، ليس ذلك فقط، بل ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا﴾ و ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾ وكان له أموال أخرى غير الجنتين، وقال لصاحبه الفقير ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ تكبرًا واغترارًا بدلاً من الحمد والشكر ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ بجحوده حق النعمة من شكر وحمد للمنعم وابتغاء رضاه ـ حتى ينعم بما ذكرته الآية ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧] ـ وقال مغترًا بالنعمة: ﴿مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ ثم كفر قائلاً ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ ثم تمادى في كفره وضلاله ليقول بلا أيّ مبرر سوى تكبره واغتراره بنفسه ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ فهل وعده الله بخير المنقلب؟ أم أنه يفترى على الله الكذب؟ وكفى به إثمًا مبينًا، و﴿مُنقَلَبًا﴾ تعنى مرجعًا وعاقبة؛ تمنيًا منه أن أهل النعيم في الدنيا هم أهل النعيم في الآخرة.

***

﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً (٣٧) لَكِنَّا۠ هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (٣٨) وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا (٣٩) فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (٤٠) أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا (٤١)﴾

أجابه صاحبه الفقير: ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً﴾ أنسيت أن أباك آدم قد خلقه الله من تراب، وخلقك أنت من نطفة، ثم تدرجت في الخلق من نطفة إلى أن صرت رجلاً سويًا؟ أما أنا فلن أكفر ولن أشرك بربي أحدًا، وكان من الأولى لك حين تدخل جنتك أن تذكر الله وتحمده قائلاً: ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ﴾ فتبرأ من حولك وقوتك إلى حول الله وقوته، فتنجو من بلاء الدنيا وتزداد نعم الله عليك، وكونك ترانى ﴿أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا﴾ فلعل الله ﴿أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾ إيمانًا وعرفانًا ورضًا في الدنيا، وجنات الآخرة، وقد يرسل على جنتك ﴿حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ حسابًا من السماء على جحودك، وقال الزمخشري: [الحسبان مصدر كالغفران، بمعنى الحساب] ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا

زَلَقًا ﴾ فتصير ترابًا لا نبات فيه، أملس لا تثبت فيه قدم لملاسته ﴿ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا ﴾ غائرًا فى الأرض ﴿ فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴾ لا يمكنك الحصول عليه للشرب ولتروى جنتك.

* * *

﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (٤٢) وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا (٤٣) هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا (٤٤) ﴾

وأحاط الهلاك فجأة بأمواله ﴿ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا ﴾ كناية عن الحسرة والندم على ما أنفق فى أرضه ﴿ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ هلك العنب وخوت العروش منه ﴿ وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ ولم يجد من ينصره من دون الله ﴿ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ ﴾ ليس هناك ولاية ولا نصرة ولا مساندة إلا من الله الحق الذى لديه ﴿ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾.

* * *

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا (٤٥) الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا (٤٦) ﴾

يا محمد، اضرب لقومك مثل هذه الحياة الدنيا التى يتكالبون عليها ويتنافسون فيها، كنزول المطر على جناتهم التى تخضر وتثمر وتمتع الناظرين، ولكنها سرعان ما تجف وتذبل وتتهشم وتبعثرها الرياح، ومصير كل متاع الدنيا إلى فناء محقق، والله على كل شىء قدير، فما المال والبنون إلا لذات ومتع الحياة الدنيا الفانية، والأعمال الصالحة هى التى تبقى للمرء فى الآخرة، فيجزيه الله عليها خير الثواب، وهى جديرة بأن يأمل المرء منها ذلك.

* * *

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٤٧) وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا (٤٨) وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (٤٩) ﴾

وأنذر الناس يا أيها النبى مما سيحدث يوم القيامة، يوم ﴿نُسَيِّرُ الْجِبَالَ﴾ نذهب بالجبال بعد أن كانت راسخة وتبرز الأرض بدون أى جبال عليها ـ كما جاء فى الآية ﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنْبَثًّا﴾ [الواقعة: ٦] ـ فإذا كان ذلك حال الجبال، فأولى بأولى الألباب أن يتيقنوا من أن كل ما فى الدنيا إلى زوال، عدا العمل، فهو أثقل من الجبال، بخيره وشره ﴿وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً﴾ تعددت أقوال المفسرين فيها، فمنها أن المقصود الأرض بارزة خالية من الجبال والكهوف والأنهار والبحار والأشجار، أرض مسطحة يقف عليها كل الخلق للحساب، وقيل المقصود تُبرز الأرض كل من بداخلها من الأموات ليوم الحساب كما جاء فى الآية ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ [الانشقاق: ٤]، ﴿وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢)﴾ [الزلزلة]، ويجمع ذلك أنه اختفت المنازل والقصور والقلاع وما إلى ذلك، وعادت الأرض ليوم خلقها الله بدون ما عمله الإنسان عليها، ليجىء كل إنسان خاليًا مما أخذ من الدنيا، وليس معه إلا عمله، صالحًا أو طالحًا. وحشر الله الناس جميعًا، ولم يترك منهم أحدًا، وعرضوا على الله صفوفًا، كما خلقهم الله أول مرة عراة من الجاه والمال والعيال، رغم نفى الجاحدين المنكرين للبعث، ثم يجىء الحساب ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ وضعت صحائف الأعمال فى أيادى أصحابها، فيأخذ المؤمن كتابه بيمينه، وأما الكافر والمشرك والمنافق فيأخذ كتابه بشماله، ويقولون: ﴿يَا وَيْلَتَنَا﴾ يا هلاكنا وحسرتنا على ما فرطنا فى حق الله وحق أنفسنا! ويا لهول ما نرى! هذا الكتاب لم يترك ذنبًا صغيرًا ولا إثمًا كبيرًا إلا سطَّره علينا، ويجدوا سيئاتهم حاضرة بين أيديهم، وفى انتظارهم الجزاء العادل من الله الذى لا يظلم أحدًا.

***

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً (٥٠) مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلاَ خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِىَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا (٥٢) وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا (٥٣)﴾

تكرر آيات القرآن قصة إبليس ورفضه السجود لآدم تكبرًا، مما أخرجه من الجنة، ليعتبر بنو آدم من أن التكبر والعصيان عاقبتهما الطرد من رحمة الله، وتنبه الناس لعداوة إبليس لهم، ثم توجه الآية سؤالاً استنكاريًا: أتتخذون عدوكم وليًا من دون الله، تطيعونه بالسير وراء

أهوائكم، بدلاً من أن تعتصموا بالله الذى أمر عدوكم بالسجود لكم تكريمًا لما علمكم؟ ﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ ما أشهدت شركاءكم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم، فكيف تزعمون أنهم شركاء لله تطيعونهم وتعصون الله؟ ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ وما كنت لا تخذ ممن يضلونكم من الشياطين مساعدين لى فى خلقى ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ ويوم القيامة يقول رب العالمين للمشركين: نادوا الشركاء الذين زعمتموهم واستعنتم بهم فى الدنيا، ولن يجيبكم أولئك الشركاء ـ وفى آيات أخرى سيتبرأون منكم فى موقف آخر من مواقف يوم القيامة ـ ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾ مَهْلكا، بسبب إشراكهم فى الدنيا، وحين ينظر المشركون والمنافقون والملحدون إلى النار يوقنون أنهم واقعون فيها لا محالة ﴿وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ لأنها تحيط بهم من كل جانب.

***

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً (٥٤) وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً (٥٥) وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا (٥٦)﴾

لقد نوّعَ الله القول فى القرآن بأساليب مختلفة، وأتى بأمثال من الأولين والآخرين، ولكن جدال الإنسان وخصامه هما كما قال سبحانه وتعالى ﴿أَوَ لَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٧٧)﴾ [يس: ٧٧]، فما الذى يمنع الناس من الإيمان بالله ورسوله وكتابه حين جاءهم هدى القرآن، وكان الأجدر بهم أن يستغفروا ربهم، قبل أن تأتيهم ﴿سُنَّةُ الأَوَّلِينَ﴾ من عذاب الاستئصال ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً﴾ أو يذوقوا العذاب أشكالاً وألوانًا ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ﴾ المؤمنين بالجنة ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ الكافرين بالنار، ولا يزال الكفار يمارون ويجادلون بالباطل ﴿لِيُدْحِضُوا﴾ ليبطلوا الحق المبين ﴿وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا﴾ فاستهزأوا بآيات الله وسخروا منها.

***

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا (٥٧) وَرَبُّكَ الْغَفُورُ

﴿ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلاً (٥٨) وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا (٥٩)﴾

ومن أظلم ممن أعرض عن تذكيره بآيات الله، ونسى ما فعله من معاص، أولئك استحقوا أن يضلهم الله بأن يجعل على قلوبهم ﴿أَكِنَّةً﴾ أغطية تمنعهم الفهم الصحيح، وفى آذانهم صممًا يمنعهم السمع الصحيح، ومهما دعوتهم فلن يهتدوا ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ تذكر يا ابن آدم غفران الله ورحمته، وتدارك نفسك لأن الله يمهل ولا يهمل، ويترك لك الفرصة تلو الفرصة لتعود إليه، ويقول فى الحديث القدسى «إذا تقرب العبد إلىَّ شبراً تقربت إليه ذراعًا، وإذا تقرب منى ذراعًا تقربت منه باعًا، وإذا أتانى مشيًا أتيته هرولة» رواه مسلم، وجاء فى الحديث «لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعير (وجد بعيره) وقد أضله فى أرض فلاة» رواه البخارى ومسلم ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ﴾ لولا أن الله يغفر ويعفو، ويمهل الناس ليتوبوا وينوبوا، لعجل عذابهم فلم يترك على ظهر الأرض أحداً، ولكنه أمهلهم حتى انقضاء أعمارهم، ثم بعثهم ليوم الحساب، ولن يجدوا لأىّ من اليومين مهربًا، واعتبروا يا أولى الألباب من الأمم السابقة: عاد وثمود وقوم لوط وغيرهم، أهلكهم الله بظلمهم، وحدد لذلك موعداً.

***

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا (٦٠) فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا (٦١) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا (٦٢) قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (٦٣) قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا (٦٤)﴾

واذكر يا محمد حينما ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لا أَبْرَحُ﴾ لن أكف عن السير ﴿حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ حتى أصل إلى مكان التقاء البحرين، وتعددت أقوال المفسرين فيه، فمنها التقاء خليج السويس بخليج العقبة، ومنها التقاء بحر الهند والبحر الأحمر، وقال البقاعى هو مصب النيل عند دمياط أو رشيد، وقيل غير ذلك، فأجد فيه العبد الذى أتاه الله رحمة وعلمًا ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ أو سأظل أسير عقوداً ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ نسى الاثنان ـ موسى وفتاه ـ الحوت، والحوت هو السمكة، صغيرة أو كبيرة، فانطلق الحوت إلى البحر

واتخذ طريقه ﴿فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ مسلكًا ومنفذًا ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ أى المكان الذى نسيا فيه الحوت، قال موسى لفتاه: ﴿آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ لقينا تعبًا ومشقة، قال له فتاه آسفًا: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ﴾ عندما أوينا للصخرة للاستراحة، نسيت مراقبة الحوت، وإن هذا النسيان من عمل الشيطان، فاتخذ الحوت طريقه فى البحر بطريقة عجيبة، قال له موسى: ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ هذا هو بالضبط ما كنا نريد، وهو أمارة بأننا سنجد بغيتنا ﴿فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا﴾ فعادا على آثار أقدامهما ﴿قَصَصًا﴾ يقصان آثارهما.

***

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (٦٥) قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (٦٨) قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (٦٩) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (٧٠)﴾

فوجدا عبدنا الخضر الذى ﴿آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ علمه الله من عنده علمًا لدنيًا، واستأذنه موسى (ﷺ) فى أن يسمح له بمصاحبته ليتعلم منه العلم اللدُنى ﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ﴾ من عند الله ﴿رُشْدًا﴾ علمًا ذا رشد وصواب؟ قال له الخضر: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ لن تطيق الصبر على ما سترى ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ وكيف تصبر على أعمال لم يحط بها علمك؟ قال موسى (ﷺ): ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ عندها شرط الخضر عليه ﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (٧٠)﴾.

***

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (٧١) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٢) قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (٧٣) فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا (٧٤)﴾

انطلق موسى والخضر، حتى إذا رأيا سفينة فركباها، فإذا بالخضر يخرق أرضيتها، فانزعج موسى (ﷺ) وسأله لائمًا: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ أخرقت السفينة حتى تغرق ويغرق أهلها؟ لقد أتيت منكرًا كبيرًا، فأجابه الخضر: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ فأجابه معتذرًا: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ لا تؤاخذني بما نسيته من شرطك ولا تُعَسِّر عليَّ متابعتك، ثم انطلق الاثنان سائرين حتى قابلهما غلام صغير، فإذا بالخضر يقتله، فثار موسى (ﷺ) معترضًا ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أقتلت نفسًا لم تقتل أحدًا؟ ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾.

***

obeikandl.com